المرحلة الثانية **د اياد عايش محمد**

المحاضرة الاولى - الفصل الدراسي الثاني – تاريخ البلاد العربية الحديث :

محاولات الاصلاح العثمانية وانعكاساتها في أقطار المشرق العربي

شهدت الدولة العثمانية منذ منتصف القرن الثامن عشر محاولات عديدة لإصلاح نظمها ومؤسساتها الإدارية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية وفق الأسس والأساليب الغربية الحديثة ، وكان لتلك المحاولات تأثيرها وانعكاساتها في الوطن العربي .

أولا : محاولات الاصلاح العثمانية :

أشرنا في ما سبق إلى تدهور نظم الحكم العثمانية وعدم قدرتها على استيعاب التطورات الحديثة التي شملت مجالات الحياة المختلفة في أوربا وخاصة في النواحي العسكرية ، وقد اتضح ذلك في سلسلة الهزائم العسكرية التي منيت بها الدولة العثمانية نتيجة تمسكها بتقاليدها القديمة ، وتكنيكها الحربي القديم ، فاضطرت إزاء ذلك إلى التوقيع على معاهدات مهينة ، ومنها معاهدة كارلوفتز سنة ١٦٩٩ التي سلمت بها المجر إلى النمسا ، معاهدة بساروفتز سنة ١٧١٧ التي فقدت بها جزءا مهما من البلقان ، ومعاهدة كوجك كينارجي التي أعقبت هزيمتها أمام روسيا سنة ١٧٧٤ ومعاهدة ياسي ١٧٩١ التي ادخلتها أمام روسيا وقد انكشف ضعفها كذلك في عدم قدرتها على مواجهة الغزو الفرنسي لمصر وفلسطين وسوريا ١٧٩٨ – ١٨٠١ ، وقد اتضحت علامات الانحطاط في تدهور النظام الاقتصادي ، وفساد الادارة الحكومية وتدخل الحريم في إدارة أمور الدولة ، واستمرار الانتفاضات في معظم ولايات الدولة العثمانية .

لذلك فقد بدأ بعض السلاطين ورجال السياسة والمثقفين المتنورين المتأثرين بالحضارة الأوربية الحديثة يبحثون عن علاج يوقف تدهور الدولة ، ويعيد إليها حيويتها ونتج عن ذلك حركة لإصلاح نظم الحكم والادارة العثمانية سميت منذ سنة ١٨٣٩ تقريبا باسم التنظيمات وامتدت كما يرى بعض المؤرخين إلى سنة ١٩٠٨ حين أعيد العمل ثانية بالدستور .

انقسم دعاة الاصلاح في الدولة العثمانية إلى فريقين ، ذهب كل منهما مذهبه في سبل الاصلاح ، فالفريق الأول يرى أن العلاج يكمن في تطبيق الانظمة الاسلامية والتقاليد العثمانية الأصيلة ، ومن هؤلاء (كجي بك) الذي كان يعتقد بأن سبب الاضمحلال العثماني هو التفريط في سنن الأجداد الأولين ، ومن ثم اتجهت أفكار هذا الفريق وجهة سلفية ، لقد كان هؤلاء يرون أن أجدادهم حققوا الانتصارات حين كانوا ((يعيشون في الإسلام)) ويذهبون إلى أنمه السبيل للعز والعظمة والرفعة ، والسبب الوحيد للمصائب التي نزلت بهم هو التفريط في شعائر الاسلام والانصراف إلى الدنيا والاسترسال مع الشهوات ، وقد اهاب (كجي بك) بالاتراك إلى الارتداد إلى النظم العثمانية القديمة والاعتصام بها ، وأكد لمواطنيه أنهم مفلحون إن عجلوا بهذه الرجعة إلى أنظمة محمد الفاتح وسليمان القانوني ، ولقد اخذ بوجهة النظر هذه بعض السياسيين من أبناء أسرة كوبرلي ، وهم ألبانيو الأصل ، أولهم كوبرلي محمد الذي اختير لمنصب الصدارة العظمى سنة ١٦٥٦ ثم ابنه وخليفتاه في الصدارة أحمد ثم أخوه مصطفى ، وقد انتعشت الدولة إبان قيادتهم لها ، ولكنها عادت بعد ذلك فاسترسلت في نومها العميق .

أما الفريق الثاني ، فقد ارتأى أن الاصلاح في الدولة العثمانية يستلزم ((اقتباس النظم الأوربية واستلهامها)) ولقد أدرك هؤلاء أن القوة الاوربية لا تقاوم بالارتداد إلى الاسلام الأول أو الاعتصام بالأساليب العثمانية الأولى ، بل السير في الطريق الذي أوصل أوربا من الضعف إلى القوة . ومن الهزيمة إلى النصر ، ويظهر أن نجاح الأقطار الأوربية آنذاك في الأمور العسكرية وفي تطوير أنظمتها الاقتصادية واندفاعاتها في سبل النهضة الشاملة بسرعة متزايدة رجح كفة الفريق الثاني ، وعليه فقد صارت حركة الاصلاح تستهدف تطبيق الأنظمة الاوربية الحديثة في مجالات الحياة المختلفة مع عدم التفريط بأحكام الشريعة الاسلامية .

وكانت وراء حركة الاصلاح العثمانية التي ابتدأت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر عوامل عديدة ، فمن المؤرخين من يرى أن الضغط الاستعماري الاوربية على الدولة العثمانية هو السبب الذي دفع الحكومة العثمانية إلى أن تصلح

من شأنها ، في حين ينكر آخرون ذلك ، ويرون أن حركة الاصلاح كانت من الداخل ، فالطبقة البرجوازية الناشئة في استانبول بدأت ، بالرغم من ضعفها آنذاك تساند أي اتجاه إصلاحي يسير نحو التخلص من الأوضاع الاقطاعية المتخلفة السائدة في الدولة العثمانية .

وبدأت تقف وراء الحكومة المركزية في إعادة سيطرتها المباشرة على بعض الولايات التي تمتعت ردحا من الزمن بالاستقلال وخلق هيكل جديد من الإدارة والقوانين المدنية ، وقد رحبت السلطة المركزية العثمانية بتأييد الطبقة البرجوازية في حركاتها الإصلاحية لأن هدم الأوضاع البالية سيدعم مركزية السلطة ، ومما يلحظ أن هذا شبيه بما حدث في اوربا نفسها في القرنين السادس عشر والسابع عشر من تعاون الطبقة البرجوازية في غرب أوربا مع النظم الملكية لهدم الإقطاع وإقامة ملكية مطلقة .